من تراب الطريق! (٢٥٤)

دماء على مذبح سلطان الآباء ! (*)

لا أستطيع أن أقاوم رصدى للدماء التى سالت على جدار السلطة .. غريب أمر الملك والملوك، قد يرتفعون إلى عنان السماء حكما وإنجازاً وصيتا وعظمة، ومع ذلك قد تخلو دنياهم من الرحمة، مع أنها قد تكون غارقة فى المحبات !

لم ينعم سلطان أو ملك فى عصره، بالمجد والصيت والعظمة التى نعم بها السلطان سليمان الأول أو القانونى الذى خلف أباه سليم الأول فى حكم الإمبراطورية العثمانية ١٥٢٠م وامتد ملكه حتى وفاته ١٥٦٦م . بلغت الإمبراطورية العثمانية فى عهده أوج سطوتها وقوتها السياسية والثقافية والعسكرية . اجتمعت إلى مواهبه فى القيادة قدرة كبيرة على التنظيم والتشريع حتى اشتهر بالقانونى للقوانين العديدة التى وضعها، والنظم التى افترضها للجيش والشرطة وملكية الأراضى .. شارك بنفسه فى فتوحاته وحروبه التى امتدت فى أوربا وآسيا .. واصل فتوح أبيه فى البلقان، فاستحوذ على بلغراد ١٥٢١، وطرد فرسان الاسبتارية من رودس ١٥٢٢، وأوقع هزيمة ساحقة بالهنغاريين فى معركة موهاكس ١٥٢٦ ..وحاصر فيينا ١٥٢٩ ولم يرده عنها إلاّ صقيع وزمهرير الشتاء . تحالف مع فرانسوا الأول ملك فرنسا ١٥٣٦ ضد بيت هابسبرج، وكون حلفا مع شارل الخامس الإمبراطور الرومانى ١٥٣٨ . شن عدة حروب ضد فارس حقق فيها انتصارات متتالية، واستخدم القرصان الشهير "بربروسة " أو

(*) المال ٢٠٠٩/٥/٥

خير الدين خضر، فصارت أساطيله مصدر فزع ورهبة فى البحر المتوسط، وضم إليه صنعاء وعدن وسيطر على البحر الأحمر حتى مضيق باب المندب .

فى عهده نعم المسيحيون واليهود بالحرية الدينية، وفر إليه يهود إسبانيا من محاكم التفتيش، وتألقت الحضارة العثمانية فى عهده، رعى الفنون والآداب، وأقام الجسور والمساجد والقصور والقناطر المائية، وزخرت المدن التابعة له بكل روعة فى البناء أو ألوان المعارف، وجعل إمبراطوريته ملاذاً آمناً وصورة لافتة للتسامح الدينى .

فهل يمكن أن يهوى هذا العظيم إلى ما دون حيوانات الغاب ؟!

كانت علاقاته العائلية، مع عشق السلطة، المنحدر الذى فارق به السلطان مراتب العظمة والعظماء إلى درك غريب هانت فيه أرواح الأبناء، وسالت دماؤهم على يديه !

كالعادة فتش عن المرأة ! .. من محظيته الأثيرة الشركسية " وردة الربيع " أنجب طفله النجيب "مصطفى" الذى ظهر نبوغه وشق طريقه إلى المناصب الكبرى والتبعات الهامة، وكالعادة أيضا فتر وتوارى حب السلطان القانونى لوردة الربيع حين انشدت عواطفه تجاه " خوريم " أو الضاحكة أو "روكسيلانا" الأسيرة الروسية التى سرعان ما كسبت قلب السلطان وانتزعته من المحظية الشركسية، وسيطرت عليه حتى وقع السلطان ثملا بجمال " روكسيلانا " ومرحها وإغوائها وخداعها !

وتتكرر الصورة التى ملأت بلاط معظم الملوك والأباطرة .. تدبر المحظية الجديدة لملك أبنائها، والطريق المعتاد إيغار صدر الأب سليمان القانونى على ابنه مصطفى ساعده الأيمن والمنتظر أن يتولى عرش أبيه، ولا يفوتها أن تصاهر لتقوية شوكتها رستم باشا الوزير الأكبر فتزوجه ابنتها، ويلتفون حول السلطان يلقون فى روعه أن مصطفى يدبر الملك لنفسه، ويصطنع الأسباب لتوسيع شعبيته حتى ينتزع العرش من أبيه،

فتتمكن الشكوك من السلطان المنهوك، فيزمع قتل ابنه، وينتقل بنفسه إلى إرجلى حيث يدعو فلذة كبده إلى خيمته، ويقتله بيده طبقا لرواية ول ديورانت فى " قصة الحضارة "، أو يتابع قتله على مرأى ومسمع منه طبقا لرواية يحيى حقى، دون أن تجدى صرخات واستعطافات الابن إلى أبيه أن ينقذه أو يعدل عن قتله !

كيف ساغ للسلطان الأب أن يقتل أعز أبنائه بيده أو على مرأى ومسمع منه ؟! لا شك أن حماية الملك رجحت لديه على محبة الابن فهانت روحه وأسال دماءه بيديه ! فهل توقفت بقتله أنهار الدم التى سالت على جدار السلطة ؟! يحكى التاريخ أن " بايزيد " ابن سليمان القانونى خشى على نفسه من أطماع أخيه سليم ابن روكسيلانا، ووجد أو تعلل بأن مصيره المحتوم سوف يكون الذبح، فشق عصا الطاعة وأعد جيشا يتحدى به السلطان، فلما انهزم فر إلى فارس، ولكن الشاه الفارسى سلمه لقاء رشوة كبيرة، فماذا كان مصيره ؟! قتل شنقا سنة ١٥٦١، ولحق به أبناؤه الخمسة الذين ذبحوا محافظة على أمن العرش !.. يقول وول ديورانت إنه يُروى أن السلطان المتألم على قتل ولديه ثم أحفاده الخمسة - قد توجه إلى الله بالشكر والحمد على مصرع هذه الذرية المزعجة التى كانت تهدد عرشه، وأنه يستطيع الآن أن يعيش فى رغدٍ وأمن وسلام !!!

قد بلغ سليمان القانونى أعلى مراتب المجد والعظمة، وخاض حروبا كثيرة سجل فيها الانتصارات وطار صيته فى البلدان، ولكنه ذبح نصف ذريته، وأمر بذبح وزير مبدع دون إنذار أو محاكمة .. كانت عظمته عظمة ملوك، وكانت أخطاؤه أيضا أخطاء ملوك، انضمت إلى مشاهد كثيرة سابقة ولاحقة سفكت فيها الدماء وسالت أنهاراً على جدار السلطة !